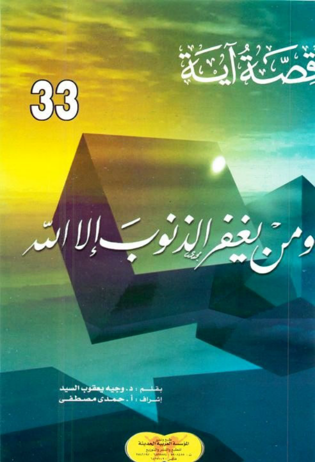

قصة آية
33
ومن يغفر الذنوب إلا الله
بقلم : د. وجيه يعقوب السيد
إشراف : أ. حمدى مصطفى
طبع ونشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

ومن يغفر الذنوب إلا الله

قَالَ (تعالى) :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

[سورة آل عمران : ١٣٥]

يُقَالُ : إِنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَكَى إِبْلِيسُ وَجُنُودُهُ..

ولِمَ لا يَبْكُونَ ، وَقَدْ نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ لِتُغْلِقَ الْبَابَ أَمَامَ الشَّيْطَانِ وَوَسَاوِسِهِ ، وَتَجْعَلَ كُلَّ مُحَاوَلَاتِهِ لِإِغْوَاءِ الْمُسْلِمِ تَبُوءُ بِالْفَشَلِ الذَّرِيعِ ؟



وَلِهَذه الآيَة قِصَّةٌ جَمِيلَةٌ تُوضِّحُ مَا قُلْنَاهُ وَتُبيِّنُ مَا نَقْصِدُهُ ..

فَبَعْدَ هِجْرَةِ الرَّسُولِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ آخَى بَيْنَ الأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرِينَ ، وَجَعَلَ مِنْ كُلِّ رَجُلَيْنِ أَخَوَيْنِ فِي اللَّهِ ، لِكُلٍّ مِنْهُمَا حَقٌّ عَلَى الآخَرِ ، فَهُوَ يَحْفَظُهُ فِي مَالِهِ وَأَهْلِهِ وَنَفْسِهِ ، وَيُقْرِضُهُ إِذَا احْتَاجَ ، وَيُسَاعِدُهُ إِذَا طَلَبَ مِنْهُ الْعَوْنَ .

وَكَانَ مِنْ بَيْنِ مَنْ آخَى الرَّسُولُ ﷺ بَيْنَهُمَا رَجُلانِ أَحَدُهُمَا أَنْصَارِيٌّ وَالآخَرُ ثَقَفِيٌّ .

وَتعَاهَدَ الرَّجُلانِ على الصِّدْقِ والْوَفاءِ
فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ، فَكَانَا لا يفترِقَانِ
ولا يَغِيبُ أَحدُهُمَا عَنِ الآخرِ ، حتَّى كَانَ
الْمُسْلِمُونَ يَغْبِطُونَهُمَا عَلَى هَذِهِ الصُّحْبَةِ .

وَفِي إِحْدَى الْغَزَوَاتِ خَرجَ الثَّقَفِيُّ مَعَ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُجاهِداً فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَالَ
لأَخِيهِ الأَنْصَارِيِّ :

ـ أَنَا خَارِجٌ لِلْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ،
وَأُوصِيكَ بِأَهْلِي وَأَبْنَائِي خَيْراً ، فَأَنْتَ أَخِي
فِي اللَّهِ ، وَقَدْ تَعَاهَدْنَا عَلَى الْوَفَاءِ وَالأُخُوَّةِ .

فَوَدَّعَهُ الأَنْصَارِيُّ وَهُوَ يَقُولُ :

ـ أعادَكَ اللَّهُ لأهْلِكَ وأبْنائِكَ سالمًا ، كُنْ مُطْمَئِنَّ النَّفْسِ هادِئَ الْبالِ ، واعْلَمْ أنَّ اللَّهَ سَيَحْفَظُ أهْلَكَ وأبْناءَكَ ولَنْ أتأخَّرَ عَنْ زِيارَتِهِمْ وتَفَقُّدِ أحْوالِهِمْ .

ومَرَّتِ الأيَّامُ ، وكانَ الأنْصارِيُّ يَزُورُ أهْلَ صاحِبِهِ ويَتَفَقَّدُهُمْ ، ويُلَبِّي لَهُمْ مَطالِبَهُمْ واحْتِيَاجاتِهِمْ .

وذاتَ يومٍ أغْرَى الشَّيْطانُ الأنْصارِيَّ بارْتِكابِ الذَّنْبِ فِي غِيابِ صاحِبِهِ ، فَضَعُفَ الرَّجُلُ أمامَ إغْراءِ الشَّيْطانِ ، وعَزَمَ عَلَى أنْ يَفْعَلَ الْمَعْصِيَةَ ، ولَمَّا رأتْ مِنْهُ



زَوْجَةُ صاحِبِه ذلِكَ عاتَبَتْهُ بِشِدَّةٍ وَقالَتْ لَهُ فِي عُنْفٍ :

ـ سُبْحانَ اللَّهِ ! خُنْتَ أَمانَتَكَ ، وعَصَيْتَ رَبَّكَ .

ثُمَّ أَضافَتْ فِي بُكاءٍ :

ـ أَهذا ما اسْتَأْمَنَكَ عَلَيْهِ صاحِبُكَ ؟ ماذا تَقُولُ لِرَبِّكَ وَقَدْ ضَيَّعْتَ أَمانَتَكَ وَخُنْتَ دِينَكَ ؟

وَلَمْ يَكَدِ الأَنْصارِيُّ يَسْمَعُ كَلامَ الزَّوْجَةِ حَتَّى أَفاقَ عَلَى فَداحَةِ فِعْلِهِ وَأَحَسَّ بِسُوءِ صَنِيعِهِ ، فَانْطَلَقَ وَهُوَ يَبْكِي وَيَقُولُ :

ـ أَضَعْتُ أَمانَتِي ، وَخُنْتُ صاحِبِي ، فَهَلْ

يَقْبلُ اللَّهُ توبتى ؟ وَأَسْرَعَ الرَّجلُ إِلَى عُمَر
بْن الْخطَّاب ، وقصَّ عَلَيْه ما حَدثَ فَعاتبَهُ
عُمَرُ بشدَّةٍ وقَالَ :

ـ ما أَرَاكَ إلاَّ هلَكْتَ !

فَازْدادَ الرَّجُلُ بُكاءً ، ثُمَّ ذَهبَ إِلَى
أَبى بَكرٍ الصِّديق وقصَّ عَلَيْه مَا حَدثَ
فَعاتبَهُ أَبُو بَكْرٍ وَقالَ لَهُ مثْلَ ما قَالَ عُمَرُ .

وَأَظْلَمت الدُّنْيَا في وَجْه الأَنْصارى ،
وَحاولَ أَنْ يُكفِّرَ عَنْ ذَنْبه فلَمْ يَجدْ أَمامَهُ
سوَى أَنْ يَسيحَ فى الْجبالِ وَيَهيمَ عَلَى
وَجْهِهِ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِى شَأْنه بِمَا يَشاءُ .

وبَقِيَ الأَنْصَارِيُّ فِي الْجِبَالِ يبْكِي وَيَنْتَحِبُ ويستغفرُ رَبَّهُ ويقولُ فِي ضَرَاعَةٍ :

ـ رَبِّ ، ذَنْبِي ذَنْبِي ! قَدْ خُنْتُ أَخِي .

وذَهَبَ إِلَيْهِ بعضُ أَصْدِقَائِهِ لِكَيْ يُقْنِعُوهُ بالذَّهَابِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِكَيْ يَسْتَغْفِرَ له رَبَّهُ فوجدوهُ ساجدًا وهُوَ يبكي ويقولُ :

ـ يا رَبِّ ، إِنَّ ذَنْبِي لَتَنُوءُ بِهِ الْجِبَالُ ، وإِنِّي أَطْمَعُ فِي عفوكَ ورحمتِكَ ، اللَّهُمَّ تُبْ عَلَيَّ واقْبَلْ تَوْبَتِي !

وأَشفقَ عليه صديقُهُ وقالَ لَهُ :

ـ يا أَخِي ، قُمْ فَانْطَلِقْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ،

فاسْأَلْهُ عَنْ ذَنْبِكَ ، لعلَّ اللَّهَ أنْ يَجْعَلَ لكَ فرَجًا وتوبَةً فقالَ الأنْصارِيُّ :

ـ وكَيْفَ أُرِي وَجْهي للرَّسولِ ﷺ بعدَما فعلْتُ ؟

فقالَ الرَّجُلُ :

ـ إنَّكَ لم تَصْنَعْ شَيْئًا يَسْتَحِقُّ أنْ تَيْئَسَ مَعَهُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ، فاللَّهُ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ جَمِيعًا ، وَمادُمْتَ قَدِ اعْتَرَفْتَ بذَنْبِكَ وَنَدِمْتَ على ما فَعَلْتَ فَسَوْفَ يَجْعَلُ اللَّهُ لكَ مَخْرَجًا .

وبَعْدَ إلْحاحٍ ذَهَبَ الأنْصارِيُّ مَعَ صاحِبِهِ إلى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَصَّ عليهِ ما حَدَثَ .

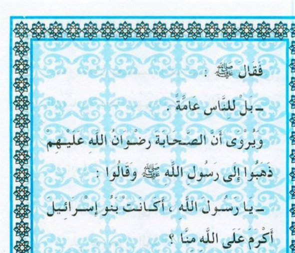
وقبل أن يتحدث الرسول ﷺ نزل جبريل عليه السلام على الرسول ﷺ بتوبة الرجل .

فتلا الرسول ﷺ قول الله (تعالى) الذى نزل به جبريل فى هذه المناسبة .

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾

وكان عمر بن الخطاب جالسا حين تلا الرسول ﷺ هاتين الآيتين فقال :

ـ يا رسول الله ، أخاص هذا لهذا الرجل ، أم للناس عامة ؟



فَقالَ ﷺ :

ـ بَلْ لِلنَّاسِ عامَّةً .

وَيُرْوَى أَنَّ الصَّحابَةَ رِضْوانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ذَهَبُوا إِلى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقالُوا :

ـ يا رَسُولَ اللَّهِ ، أَكانَتْ بَنُو إِسْرائِيلَ أَكْرَمَ عَلى اللَّهِ مِنَّا ؟

فَسَأَلَهُمُ الرَّسُولُ ﷺ عَنْ ذلِكَ فَقالُوا :

ـ يا رَسُولَ اللَّهِ ، لَقَدْ كانَ الْمُذْنِبُ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ يَقُومُ فَيَجِدُ عُقُوبَتَهُ وَكَفَّارَةَ ذَنْبِهِ مَكْتُوبَةً عَلى بابِ دارِهِ .

وَأَضافَ الصَّحابَةُ :

ـ وَبِذَلِكَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَهُمْ ذُنُوبَهُمْ فِى الدُّنْيَا وَلا يُحَاسِبُهُمْ عَلَيْهَا فِى الآخِرَةِ .

فَقَالَ النَّبِىُّ ﷺ :

ـ أَلا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ ؟

فَقَالَ الصَّحَابَةُ فِى لَهْفَةٍ :

ـ بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ !

فَتَلا الرَّسُولُ ﷺ قَوْلَهُ (تعالى) :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ . . ﴾

هَلْ عَرَفْتَ إِذَنْ لِمَاذَا بَكَى إِبْلِيسُ وَجُنُودُهُ عِنْدَمَا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ؟

إنَّ اللَّه (تعالى) يَغفرُ الذُّنوبَ جميعًا ، بِشرْطِ أنْ يستغفِرَهُ المُذنبُ ويَعْقِدَ العزمَ عَلَى الإقْلاعِ عَنْ ذَنْبِهِ ، ولا يكونُ الاستغفارُ باللِّسانِ بَلْ يجبُ أنْ يكونَ بالابتعادِ عَنِ الذُّنوبِ ، فمنْ قالَ : أستغفرُ اللَّهَ ، وقَلْبُهُ مُصِرٌّ على معصيته ،فاستغفارُه ذلكَ يحتاجُ إلى استغفارٍ ، وقدْ رُوِيَ عنِ الحَسنِ البصْري أنَّهُ قالَ :

ـ استغفارُنا هذا يحتاجُ إلى استغفارٍ .

ومِنَ الأشياءِ الَّتي تُساعدُ الإنسانَ على الاستغفارِ والتَّوبةِ تلاوةُ القُرآنِ وتدبُّرُ آياته .

قَالَ الْعُلَمَاءُ الأَجِلاءُ :

- الْبَاعِثُ عَلَى التَّوْبَةِ وحلِّ الإصْرَارِ ، إدَامَةُ الْفِكْرِ فى كِتَابِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ، وَمَا ذَكَرَهُ سُبْحَانَهُ مِن تَفَاصِيلِ الْجَنَّةِ ووَعَدَ بِهِ الْمُطِيعِينَ ، وَمَا وَصَفَهُ مِنْ عَذَابِ النَّارِ وَيُهَدِّدُ بِهِ العَاصِينَ ، وَدَامَ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى قَوِى خَوْفُه ورَجَاؤه فَدَعَا اللّهَ رَغَبًا وَرَهَبًا ، وَالرَّغْبَةُ والرَهْبَةُ ثَمَرةُ الْخَوفِ والرَّجَاءِ ، يَخَافُ مِنَ الْعِقَابِ وَيَرْجُو الثَّوَابَ ، واللّهُ الْمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ .

وَرُوِىَ عَنِ النَّبِىِّ ﷺ فِيمَا يَحْكِيهِ عَنْ (رَبِّ العِزَّةِ) قَالَ :

ـ أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا فَقَالَ : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي ، فَقَالَ (تبارك وتعالى) :

« أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ ، فَقَالَ : أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي ، فَقَالَ اللَّهُ (عَزَّ وَجَلَّ) : أَذْنَبَ عَبْدِي فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ ، اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ » . [رواه مسلم]

وقال ﷺ :

« إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ ثُمَّ تَابَ إِلَى اللَّهِ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ » . [متفق عليه]



أَيا مَنْ لَيْسَ لِى مِنْهُ مُجيرُ

بِعَفْوِكَ مِنْ عَذابِكَ أَسْتَجيرُ

أَنا الْعَبْدُ الْمُقِرُ بِكُلِّ ذَنْبٍ

وَأَنْتَ السَّيِّدُ المَوْلى الْغَفُورُ

فَإِنْ عَذَّبْتَنِى فَبِسُوءِ فِعْلِى

وَإِن تَغْفِرْ فَأَنْتَ بِهِ جَديرُ

رقم الإيداع ٢٠٠١/١٦١٢٥

الترقيم الدولى ٥ _ ٦٩٩ _ ٢٦٦ _ ٩٧٧